ماء زمزم وأسرار السعي

الحمد لله الذي جعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا، وكرّمه بالنسبة إلى نفسه تشريفًا ومنة، فرض علينا حج بيته الحرام، وجعله قبلة للأنام، يردونه ورود الظمآن، طامعين في مغفرة الودود المنان، واختار من بين خلقه سماعًا أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته.

فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال، ويساوي تاركها بجحوده اليهود والنصارى في الضلال!

عباد الله، مازلنا مع رحلة الحج المباركة، وقد وقفنا في الخطبة الماضية مع نهاية الطواف، وأحكامه، وأسراره.

وعلمنا أن الحاج إما أن يكون مفردًا، أو قارنًا، أو متمتعًا، وذلك بنية الإحرام في الميقات، وعلمنا عباد الله أنه سوف يطوف إن كان متمتعًا طواف العمرة ثم ينهي عمرته، والمفرد والقارن يطوفان طواف القدوم ثم يسعيان سعي الحج، ثم ينتظر الجميع إلى يوم التروية، وهو اليوم الثامن.

واعلم أن أيام الحج لها أسماء؛ اليوم الثامن التروية، والتاسع عرفة، والعاشر النحر، والحادي عشر القر، والثاني عشر النفرة الأولى، والثالث عشر النفرة الثانية.

وقد تكلمنا عباد الله من الناحية الفقهية ثم تكلمنا عن الأسرار والحكم حتى انتهينا من الطواف، ورأى الحاج هذه الأنوار وهذه المشاعر.

ثم بعد هذا النعيم، والخير العميم، والعطاء العظيم من الرب الرحيم تجد زمزم، وما أدراك ما زمزم؟!

ركضة جبريل، الشباعة، الرواء، المضنونة، السقيا، شفاء سقم، طعام طعم، حفيرة عبد المطلب لا تنزح ولا تذم

يقول ابن حجر: (**سُمِّيَتْ زَمْزَمَ لِكَثْرَتِهَا، يُقَالُ: مَاءٌ زَمْزَمٌ، أَي: كثير**)[1].

وقد تكلمت مع حضراتكم في الخطبة الماضية كيف كان من شأن إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام، فلما سعت تبحث عن ماء زمزم وهي على المروة سمعت صوتًا، فقالت: (**صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ**)[2].

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (**يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ؛ لَكَانَتْ عَيْنًا مَعِينًا**)[3].

صدقت أم إسماعيل مع الله فلم يضيعها لما قالت لإبراهيم (**آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا**)[4]، وفي رواية قال لها جبريل: (**مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا هَاجَرُ، أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: إِلَى مَنْ وَكَلَكُمَا؟ قَالَتْ: وَكَلَنَا إِلَى اللَّهِ، قَالَ: وَكَلَكُمَا إِلَى كَافٍ**)[5].

لم يضيعها الله سبحانه، بل جعل سعيها دينًا وشرب ماء زمزم سنة

وتعالوا معي عباد الله نذكر فضل زمزم:

الفضيلة الأولى: غسل قلب النبي ﷺ بماء زمزم

وذلك في رحلة الإسراء والمعراج ثم حشي قلبه إيمانًا وحكمة، وذكر صاحب كتاب

---

[1] فتح الباري (493/3)، لابن حجر رحمه الله.

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (3364).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (2368).

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (3364).

[5] موقع الدرر السنية: قال العيني الحنفي رحمه الله في عمدة القاري: إسناده حسن.

المواهب عن شيخ الإسلام البلقيني رحمه الله: (**أَنَّ مَاءَ زَمْزَمَ أَفْضَلُ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ لِغَسْلِ قَلْبِهِ ﷺ**)[1].

الفضيلة الثانية: هو خير ماء على وجه الأرض

يقول النبي ﷺ: (**خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَاءُ زَمْزَمَ، فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطُّعْمِ، وَشِفَاءٌ مِنَ السَّقَمِ**)[2].

الفضيلة الثالثة: لا يتضلع منه منافق

يقول النبي ﷺ: (**إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ، إِنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ**)[3].

والتضلع هو الإكثار من الشرب حتى يتمدد الجنب والأضلاع.

الفضيلة الرابعة: ماء زمزم لما شرب له

قال النبي ﷺ: (**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**)[4]؛ لأنه سقيا الله وغياثه لولد خليله إبراهيم عليه السلام، فبقي غياثًا لمن بعده، فمن شربه بإخلاص؛ وجد ذلك الغوث، فيناله العبد على قدر نيته.

قال مجاهد: (**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ، إِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَفَاكَ اللَّهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِشِبَعِكَ أَشْبَعَكَ اللَّهُ بِهِ**)[5].

قال سويد بن سعيد: (**رَأَيْتُ ابْنَ الْمُبَارَكِ أَتَى زَمْزَمَ فَمَلأَ إِنَاءً، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ، وَهُوَ ذَا، أَشْرَبُ هَذَا**

[1] مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (46/1)، للحطاب رحمه الله.

[2] أخرجه عبد الرازق الصنعاني في مصنفه (9119)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (3322).

[3] أخرجه ابن ماجه رحمه الله في سننه (3061)، وقال الملقن رحمه الله في شرح البخاري (11/458): إسناده جيد.

[4] أخرجه ابن ماجه رحمه الله في سننه (2502)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (2502).

[5] أخرجه الدارقطني رحمه الله في سننه (2739)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الترغيب (750).

لِعَطَشِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ شَرِبَهُ)[1].

وسئل ابن خزيمة: (**مِنْ أَيْنَ أُوتِيتَ العِلْمَ؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ، وَإِنِّيْ لَمَّا شَرِبتُ؛ سَأَلْتُ اللهَ عِلْمًا نَافِعًا)**[2].

ويحكى عن ابن حجر رحمه الله: (**وَأَنَا شَرِبْته فِي بِدَايَةِ طَلَبِ الْحَدِيثِ أَنْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ حَالَةَ الذَّهَبِيِّ فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ، ثُمَّ حَجَجْت بَعْدَ مُدَّةٍ تَقْرُبُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَنَا أَجِد مِنْ نَفْسِي الْمَزِيدَ عَلَى تِلْكَ الرُّتْبَةِ، فَسَأَلْت رُتْبَةً أَعْلَى مِنْهَا وَأَرْجُو اللَّهَ أَنْ أَنَالَ ذَلِكَ مِنْهُ)**[3].

وكان الإمام الشافعي يشربها بنية عجيبة، ويخبرنا عن ذلك بقوله: (**شربنا ماء زمزم لتعلم العلم، فتعلمناه، ولو شربناها للتقوى؛ لكان خيرا لنا**).

فإن خانك لسانك، ولم تسعفك فصاحتك؛ فافعل كما فعل أحد الأعراب، وقف على زمزم فوجد الناس يشربون ويسألون مطالب لهم مختلفة، فرفع إناء مملوءًا إلى فمه، وقال: (اللهم إن هؤلاء قد اختاروا لأنفسهم، فاختر أنت لي)، ثم شرب.

الفضيلة الخامسة: ماء زمزم طعام طعم

يقول ﷺ: (**إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ)**[4].

يقول ابن القيم: (**وَشَاهَدْتُ مَنْ يَتَغَذَّى بِهِ الْأَيَّامَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ الشَّهْرِ أَوْ أَكْثَرَ وَلَا يَجِدُ جُوعًا، وَيَطُوفُ مَعَ النَّاسِ كَأَحَدِهِمْ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ رُبَّمَا بَقِيَ عَلَيْهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَكَانَ لَهُ قُوَّةٌ يُجَامِعُ بِهَا أَهْلَهُ، وَيَصُومُ، وَيَطُوفُ مِرَارًا)**[5].

---

[1] شعب الإيمان (30/6)، للبيهقي رحمه الله.

[2] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (14/ 370)، للذهبي رحمه الله.

[3] فتح القدير (507/3)، للكمال ابن الهمام رحمه الله.

[4] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (2473).

[5] زاد المعاد في هدي خير العباد (361/4)، لابن القيم رحمه الله.

الفضيلة السادسة: زمزم شفاء سقم

يقول ابن القيم رحمه الله: (**قَدْ جَرَّبْتُ أَنَا وَغَيْرِي مِنَ الِاسْتِشْفَاءِ بِمَاءِ زَمْزَمَ أُمُورًا عَجِيبَةً، وَاسْتَشْفَيْتُ بِهِ مِنْ عِدَّةِ أَمْرَاضٍ، فَبَرَأْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ**)[1].

ويقول أيضًا رحمه الله: (**وَلَقَدْ مَرَّ بِي وَقْتٌ بِمَكَّةَ سَقِمْتُ فِيهِ، وَفَقَدْتُ الطَّبِيبَ وَالدَّوَاءَ، فَكُنْتُ أَتَعَالَجُ بِهَا، آخُذُ شَرْبَةً مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَقْرَؤُهَا[2] عَلَيْهَا مِرَارًا ثُمَّ أَشْرَبُهُ، فَوَجَدْتُ بِذَلِكَ الْبُرْءَ التَّامَّ**)[3].

الفضيلة السابعة: ماء زمزم لا يفسد بمرور الأعوام ولا يتغير كما يقال

بل كان النبي ﷺ يطلب من سهيل بن عمرو رضي الله عنه أن يرسل إليه ماء زمزم وهو في المدينة: (**فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمُزَادَتَيْنِ**)[4].

بل لا يفسد بمرور الأعوام، وقد ذكرت المجلة العربية عن الداعية الأسيوي عبد الرشيد إبراهيم التناري العرق التركي اللسان الروسي الجنسية في كتاب عالم الإسلام أنها بقيت عنده اثنى عشر سنة لم تتغير.

فتضلعوا من مائه وادعوا فقد ... جاءت أحاديث بذاك صحاح

من قال زمزم قدست أسرارها ... عند الإله فما عليه جناح

عباد الله، إنه الشوق، ليس إلا الشوق للذهاب إلى هذه الأماكن المقدسة، الشوق الذي وقوده هو الإيمان بالله عقيدة وعملًا، الشوق الذي تؤججه سير الصالحين والمحبين، الشوق الذي يحفظ لهيبه الدعاء، والإخلاص، والتوكل على الله.

---

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد (361/4)، لابن القيم رحمه الله.

[2] أي سورة الفاتحة.

[3] زاد المعاد في هدي خير العباد (164/4)، لابن القيم رحمه الله.

[4] أخرجه البيهقي رحمه الله في السنن الكبرى (9987)، وقال الألباني رحمه الله في إرواء الغليل (4/320): إسناده جيد رجاله كلهم ثقات سوى راو لم أجد له ترجمة.

يحكي سائق معاصر عن باكستانيينِ أنه رآهما في استراحة من الاستراحات وهما ذاهبان إلى الحرم يأكلان خبزًا يابسًا، فعلم من قصتهما أنهما منذ 20 سنة وهما يجمعان المال ولا يأكلان إلا الخبز اليابس حتى لم تقبل بطونهما غيره شوقًا للحج، هل ترى أنهما عند دخولهما المشاعر ورؤيتهما البيت أن شعورهما سوف يكون يابسًا أم رطبًا بتلك الأشواق؟!!

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الصفا والمروة، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وسأل عروة عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية فقالت: (**أُنْزِلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾**)[1].

وقيل: أنزل الله تعالى ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ** ﴾؛ لأنهم في الجاهلية كانوا يسعون، فكان صنم في الصفا يدعى أساف ووثن بالمروة نائلة، فكان أهل الجاهلية يسعون بينهما، فلما جاء الإسلام رموا بهما وتوقفوا عن السعي، فأنزل الله تعالى الآية.

يقول ابن حجر: (**يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْأَنْصَارُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا فَرِيقَيْنِ؛ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَطُوفُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ رِوَايَةُ أَبِي مُعَاوِيَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يَقْرَبُهُمَا عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ رِوَايَةُ الزُّهْرِيِّ، وَاشْتَرَكَ الْفَرِيقَانِ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى التَّوَقُّفِ عَنِ**

---

[1] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (1643)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه بلفظ قريب (1277).

الطَّوَافِ بَيْنَهُمَا؛ لِكَوْنِهِ كَانَ عِنْدَهُمْ جَمِيعًا مِنْ أَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيُجْمَعُ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ بِهَذَا)[1].

ويبدأ السعي فيتلو الآية: ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨** ﴾[البقرة: ١٥٨]، ويقول: (نبدأ بما بدأ الله به)، ثم يبدأ بالصفا ويرقى عليه ويتوجه إلى القبلة، ويقول: (الله أكبر الله أكبر الله أكبر)، (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ، قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)**[2]، ويدعو بما شاء بين التهليلات، ثم ينزل فيمشي ويسعى بين العلمين، ثم يرقى المروة ويفعل مثل ما فعل، إلى أن يكمل سبعة أشواط، وفي أثناء سعيه يتعمق في فهم هذا المنسك.

يقول الدهلوي رحمه الله: (**السر فِي السَّعْي بَين الصَّفَا والمروة على مَا ورد فِي الحَدِيث أَن هَاجر أم إِسْمَاعِيل عليهما السلام لما اشْتَدَّ بهَا الْحَال سعت بَينهمَا سعي الْإِنْسَان المجهود، فكشف الله عَنْهُمَا الْجهد بإبداء زَمْزَم وإلهام الرَّغْبَة فِي النَّاس أَن يعمروا تِلْكَ الْبقْعَة، فَوَجَبَ شكر تِلْكَ النِّعْمَة على أَوْلَاده وَمن تبعهُمْ، وتذكر تِلْكَ الْآيَة الخارقة لتبهت بهيميتهم، وتدلهم على الله، وَلَا شَيْء فِي هَذَا مثل أَن يعضد عقد الْقلب بهما بِفعل ظَاهر منضبط مُخَالف لمألوف الْقَوْم)**[3].

---

[1] فتح الباري (501/3)، لابن حجر رحمه الله.

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (1218).

[3] حجة الله البالغة (95/2)، للدهلوي رحمه الله.

واستشعر أنك تسعى بين يدي مولاك ذاهبًا وآتيًا مرة بعد أخرى إظهارًا لإخلاصك له، رجاء أن يلمحك بعين الرحمة، ولا تزال تسعى مرة بعد مرة فتكون الرحمة في الأولى والثانية.

كذلك استشعر أنك تبحث عن ضالتك، وهي رحمة الله، عسى الله أن يرحمك برحمته الواسعة كما رحم هاجر وابنها عليهما السلام، وتعلم الثقة بالله والتوكل عليه؛ فالصفا والمروة من شعائر الله وعلاماته؛ لأنهما يذكران بأصل عظيم هو الثقة بالله والتوكل عليه، وقد جعل الله الصفا والمروة من أركان الحج لتظل أبدا تنطق بهذا المعنى.

كذلك تعلم الإصرار واقتل اليأس بفعل هاجر رضي الله عنها، فقد كان بإمكانها أن تسعى مرتين وتعذر إلى الله، ولكنه الإصرار على المطلوب.

كذلك تعلّم الأخذ بالأسباب وعدم الاعتماد على الأسباب، فقد بحثت وأخذت بالأسباب عند الصفا والمروة وانفجر الماء تحت قدم رضيع عند الكعبة، وكفعل النبي ﷺ، فقد كانت دعوته في مكة، ففتح الله له المدينة.